CC BY

ظاهرة الحزن في شعر مزاحم علاوي الشاهري

فاتن غانم فتحي النعيمي *

تأريخ التقديم: 2021/4/6 تأريخ القبول: 2021/4/24

المستخلص:

تكمن أهمية البحث الموسوم بـ" ظاهرة الحزن في شعر مزاحم علاوي الشاهري" من أَنَّ (الحزن) يأتي بوصفه ظاهرة بارزة في شعر الشاعر موضوع البحث، فضلًا عن كونه باعثًا من بواعث صياغة التجربة الشعرية وتشكلها في نتاج المبدع العراقي عامة ، ولاسيَّما أَنَّه كان يحيا في ظل أجواء يهيمن عليها السلب بفعل الحرب والحصار وما نجم عنهما من آثار انعكست سلبًا على المجتمع عامة، فطبع بذلك نتاج المبدع بطابع الحزن، إذ تواشج لديه الهم الذاتي بالهم الموضوعي مفجرًا طاقاته الشعرية المعبرة عن مرارة واقعه ، لذا اخترنا (الحزن) موضوعا لبحثنا.

وقد نهج البحث نهجًا نصيًا؛ لاعتماد طريقة العمل فيه على مقاربة النصوص الشعرية، ومحاولة الكشف عن صورها وعناصرها التكوينية، مع العناية بالسياقات المحيطية بالنص، كالسياق الاجتماعي والوطني والقومي الذي كانت تحيل عليه دلالاته .

تقوم خطة البحث على قسمين، يسبقهما مدخل ويتلوهما خاتمة عُرضت فيها نتائج البحث، أَمَّا المدخل ففُصِّل القول فيه عن مفهوم (الحزن) اللغوي والاصطلاحي، فضلًا عن أثره في إيقاد التجربة الشعرية وإطلاقها في نتاج المبدع العراقي .

وقد خُص القسم الأول بدراسة (البواعث الذاتية للحزن) الناجمة عن وعي المبدع ورهافة إحساسه إزاء انكسارات واقعه والأَزمات الحياتية والنكبات والخسائر الإنسانية التي لحقت به وبأسرته وغيرها من الأمور .

أَمَّا القسم الثاني فخُص بدراسة (البواعث الموضوعية للحزن) المتمثلة بالعوامل الخارجية المتعلقة بقضايا المجتمع العراقي عامة (كالحرب والحصار) وما نجم عنها من آثار انعكست سلبًا بصورة خاصة على حياة المبدع العراقي ونتاجه الإبداعي.

* أستاذ مساعد/ قسم اللغة العربية/ كلية الآداب / جامعة الموصل.

الكلمات المفتاحية: الحزن، الشعر الحديث، ظاهرة، الشاهري.

المدخل :

يعد الحزن من الظواهر الوجودية المتعالقة مع وجود الإنسان ذاته، إذ انبثق بانبثاق الحياة ليخطط قسرًا أقدار الناس، فوقف الإنسان في عصوره المختلفة عاجزًا إزاء قسوته حائرًا من سر سطوته. وهذا الأمر يعود لطبيعة الحزن نفسه؛ إذ تتشكل معانيه في كلِّ ما فيه شدة وخشونة وغلظة، فقد جاء في (لسان العرب) أن الحزن هو خشونة الشيء وغلظته وشدة فيه [1] .

وأن " الحُزْنُ والحَزَنُ: نقيض الفرح، وهو خلاف السرور ... والجمع أَحْزَانٌ "[2] . وقوله تعالى: { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ } [3] .

قالوا فيه: " هو كُلُّ ما يَحْزُن مِنْ حَزَنِ معاشٍ أو حَزَنِ عذاب أو حَزَنِ موتٍ، فقد اذهب الله عن أَهل الجَّنة كلَّ الأحزان " [4] .

ومن ذلك المعنى المعجمي أَخذ الحزن مفهومه، فعرَّفه أَبو هلال العسكري أَنَّه: " تكاثف الهم وغلظه " [5] .

وعرفه عائض القرني أَنَّهُ :" خمود لجذوة الطلب، وهمود لروح الهمّة، وبرود في النفس، وهو حُمَّى تشل جسم الحياة ... لأَنَّه من الأذى الذي يصيب النفس، ... وهو مصل سام للروح، يورثها الفتور والنكد والحيرة، ويصيبها بوجوم قاتل متذبِّل أمام الجمال، فتهوي عند الحسن، وتنطفئ عند مباهج الحياة، فتحتسي كأس السؤم والحسرة والألم "[6] .

---

(1) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري(ت711هـ)، تحقيق : عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ج(13)، ط2 ، 2009م: 135/13–136.

(2) المصدر نفسه: 134/13.

(3) سورة فاطر، من الآية: 34.

(4) لسان العرب: 135/13.

(5) الفروق في اللغة، تحقيق: لجنة أحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، ط5، 1983: 216.

(6) لا تحزن، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط3، (طبعة مزيدة ومنقحة)، 1420هـ- 1999م: 51–52.

وعلى أساس هذه المفاهيم وغيرها، ورد تعريف الحزن في (المعجم الفلسفي) على أنه: " ألم نفساني يغمر النفس كلها ويرادفه الغم، والهم، والكآبة " [1].

ويحصل الحزن للنفس إمَّا بالعرض لوقوع مكروه، أو فراق محبوب، وإما أن يحصل لها بالطبع لانطواء مزاجها على القلق والاضطراب وعلى ذلك، فالحزن حالة نفسية تعتري النفس الإنسانية فتؤثر فيها وتنطبع تبعًا لذلك تصوراتها وسلوكها في الحياة [2] ، ويعد الحزن ظاهرة شائعة في الأدب العربي قديما وحديثا، إلا أن ارتباطه بالشعر يبرز بصورة أكثر دقة من النثر، فقد حفل الشعر العربي في عصوره جميعها بالقصائد التي تمثل نظرة الشاعر إلى الحياة وما يحدث فيها من الأحداث القاتمة، والرزايا أو المحن وغيرها من ألوان البؤس والشقاء. فجاءت أشعاره معبرة بصدق عن تلك الأزمات. مجسدة انفعالاته وإحساسه المفرط تجاه تناقضاتها، وهذا ما ولد عنده شعورًا بالألم والحزن[3].

وتبرز هذه الظاهرة بصورة جلية في شعر شعراء عصر النهضة الحديثة، ولاسيما بعد الحرب العالمية الثانية، إذ نجد ان ظاهرة الحيرة والقلق والشك في جدوى الحياة واليأس من صلاحها وما تملأ به نفس الانسان من السأم والملل وما تشعره من الضياع قد صبغت معظم دواوين الشعراء بلون قاتم وجعلتها تنطبع بطابع الكآبة والحزن والأَسى، فكان للأحداث السياسية المتعاقبة والإدراك السيء لمفاهيم الحداثة والمعاصرة الأثر البارز في خلق جو مفعم بالقلق والكآبة التي تأصَّلت جذورها في نفسية الشاعر الحديث لتنعكس آثارها سلبا في نتاجه ،إذ طبعت نصوصه بطابع الكآبة والتشاؤم واليأس والشعور بالغربة والانعزال، بل وحتى الشعور بالحب جاء مشبوبا بالحزن[4].

ومن المعلوم لدينا أَنَّ العراق في الربع الأخير من القرن الماضي، مر بظروف من الحروب والحصار والدمار ما ألحق بشعبه ألوانا من العذاب والحزن والفقدان كانت

(1) جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت– لبنان، ج(1)، ط1، 1971: 466/1.

(2) ينظر : المصدر نفسه: 466/1.

(3) ينظر: شعر المرأة العربية المعاصر، د. رجا سمرين، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط1، 1990: 332–333.

(4) ينظر: الشعر بين الرؤيا والتشكيل، دار العودة، بيروت – لبنان، ط1، 1981: 26.

لها آثار عميقة في نتاج الشعراء المحدثين؛ وذلك لأمور عدة ، منها ما كان ناجما عن أسباب ذاتية خاصة، والآخر ناجم عن أسباب موضوعية عامة ولذا جاءت الغالبية العظمى من دواوينهم مطبوعة بطابع الكآبة والأسى والحزن العميق.

وبما أَنَّنا بصدد دراسة الحزن في شعر شاعر عراقي حديث وهو مزاحم علاوي الشاهري (*)، فلابد لنا من الاشارة إلى الأسباب –الذاتية والموضوعية– التي أحاطت بالشاعر، وأَسهمت في صياغة وطبع نتاجه الشعري بذلك الطابع الحزين، ومن تلك الأسباب:

أ: الأسباب الذاتية، ومنها:

1– ما تمتع به الشاعر من وعي ناضج واحساس مرهف وثقافة رفيعة؛ وذلك كله أسهم في تعميق وعيه بقضيته الإنسانية، كونه يعيش في ظل مجتمع محاط بالسلب والحرب والانكسار.

2– الخيبة في الحب والحرمان من التواصل مع المحبوب.

3– الأزمات الحياتية والنكبات والخسائر الإنسانية التي لحقت به وبعائلته مما عمل على هز وجدانه وفتق أكمام الحزن في أعماقه.

4– التوجس من هاجس الموت، والخوف من الفناء .

ب: الأسباب الموضوعية، ومنها:

1– التأثير السلبي للنظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية وما تفرزه هذه النظم من ظواهر محزنة.

* شاعر عراقي الولادة موصلي النشأة ولد عام 1955 م , وحصل على شهادة الدكتوراه في فلسفة التاريخ ,وكان تدريسيا في جامعة الموصل/ كلية التربية / قسم التاريخ ،توفي في عام 2018م عن عمر ناهز الثالثة والستين عاما , له مؤلفات شعرية ثلاثة هي (الحلم مملكتي 1986 م, قمر الحي 1988 م , رماد كائن في الليل 2000 م) هذا فضلا عن العديد من المؤلفات والدراسات التاريخية .

2- الحرب والحصار المفروض على العراق، فضلا عن القضايا المصيرية للأمة العربية التي أثرت بشكل وآخر في النتاج الشعري عامة، لتغدو مصدرًا من مصادر الحزن لدى الشاعر العراقي الحديث.

فمع اندغام الأسباب (الذاتية بالموضوعية) وتفاعلها تفاقم الحزن والألم في شعر الشاعر العراقي؛ فجاء شعره معبرًا عن كل ما ألم به وبمجتمعه من ألوان المآسي والهموم.

أولا: بواعث الحزن الذاتية:

عند الاطلاع على النتاج الشعري للشاعر مزاحم علاوي نجد أَنَّه طُبِعَ بطابع الحزن الناجم عن احساسه بالقهر والغربة والضعف، كونه يحيا في وطن يحيط به السلب، الأمر الذي جعله كل يوم يخسر الكثير من قدرته على العطاء، وتهدر مشاركته الإيجابية في صنع الحياة والقرار حاله حال أقرانه من المثقفين والأدباء. وإلى ذلك أشار الشاعر في قصيدته (تداعيات) قائلا: [1].

" لا والذي أشقى دمي
ما فر قلبي لحظة من حزنهِ
مَرَّتْ ليال لا يفارقها الأنينْ
والتبغُ يملأُ غرفتي
والدمعُ صخرٌ في المآقي لا يلين .." .

فاستهلال النص بالقسم بمقسم به مجهول لم يعلن الشاعر عن هويته مكتفياً بالإشارة لفعله (أشقى دمي) , أوحى للمتلقي بشدة سطوة المقسم به وتسلطه على الذات الشاعرة التي باتت أسيرة هيمنته , فعادة لا يقع القسم إلَّا بالذات السامية أو بعظام الأمور, ودلَّ انعكاس فعله على الذات الشاعرة والمتمثل (بالشقاء) على حدة قسوته وجوره, ليهيمن السلب على فضاء النص , إذ جاء نفي الفعل (فرَ) بما النافية دالاً على ثبات الحال / استغراق الشاعر بالحزن وتمكنه من نفسه بفعل تسلط قِوى خارجية لا يمتلك الشاعر القوة على صدها أو التحرر من وقع انعكاسها على النفس , فباتت تسلبه كل شيء حتى ملكة

(1) الحلم مملكتي (مجموعة شعرية), مزاحم علاوي , دار الشؤون الثقافية العامة , بغداد – العراق , ط1 , 1986 : 95 .

إبداع القصيدة التي كانت له بمثابة السبيل الوحيد للخلاص من واقعه المأزوم الذي تسبب في اغترابه عن ذاته وعن كل ما يحيط به , فلم يعد يمتلك القدرة إلا على الرثاء الذي غدا الملاذ الوحيد أمام قسوة واقعه المعيش وهذا ما جسده قوله : [1]

" يا سيد الحرف الذي ينساب كالشلال .
يا منقذ العشاق من زلل الضلال .
يا شيخنا المحمي من زمن القلق .
هيا انطلق .
لكن صوتك في فراغ ..!
وظللت تصرخ في انكسار .
حتى ذويت .
ماذا تبقى في يديك ؟
الشعر يقطنه البوار .
والروح يذبحها احتضار .
ماذا تبقى في يديك ؟
ها انت تفقد كل شيء .
ها انت ترثي كل شيء .
أهو الرثاء الآن طوع في يديك ؟
ماذا تبقى في يديك ؟ " .

فاختتام النص بالسؤال الموجه من الشاعر لذاته بقوله (ماذا تبقى في يديك) الذي تكرر(ثلاث مرات) في هذا المقطع جاء معززًا لأَمر اغترابه ومجسدًا للألَم الَّذي بدا متحكمًا بمصيره بدلالة فقدانه القدرة على التحكم بملكته الإبداعية, التي دلَ عليها فعل الامر (انطلق) الذي تم استدراكه بالحرف (لكنْ) الدال على امتناع وقوع الفعل لوجود عائق متمثل بـ (الفراغ) المانع لانتقال الصوت (لكنْ صوتكَ في فراغْ ..) ليدخل

(1) المصدر نفسه: 97 .

الشاعر في حالة من الانكسار النفسي تسلبه القدرة على المقاومة, وتتركه أَسيرًا لحزنه ولرثاء الذات والوجود .

ويخرج نص (راحل) لتأكيد فكرة اغتراب الشاعر عن محيطه وتقوقعه على ذاته , ملتزما مبدأ (الصمت) لمواربة سوداوية الواقع وسطوته , عله يدرك الحل بعمق وعيه وإحساسه المرهف: [1]

" سِرهُ دمُهُ

ورِصَاصتُه فمُهُ

اِحْتَمَل صَمْتُه

فَغدَا يَفْتَح القبَر عنْ جُرحِه

يسْترَدْ عَصاهُ

فيهِشْ قفا الكلِماتْ ,

إلى مُبْتَغاهُ .. " .

فقوله (سره دمه ورصاصته فمه) ما هو الا كناية عن ملكته الإبداعية التي تم كبتها بقوى خارجة عن الاحتمال، واستحضرها الشاعر هنا أداةً لمقاومة السلب والانكسار، فاحتمال الصمت في النص وظف بوصفه آلية تكنيكية ابتغاها الشاعر للإعداد لخطة المقاومة ؛ لأن الصمت يحمل في طياته معنى الانقطاع عن الكلام مطولًا, فضلًا عن كونه متولدًا عن الحكمة عكس السكوت الذي يتولَّد عادة من الخوف[2], وجُسد هذا الأمر بقوله : (يفتح القبر عن جرحه / يسترد عصاه / فيهش قفا الكلمات ..) فالأفعال (يفتح , يسترد , يهش) عملت على بث الطاقة الفاعلة في النص, ولاسيَّما وأَنَّها جاءت بصيغة دالة على الحال والاستقبال , هذا فضلًا عمَّا أَفاد به الشاعر من إقامة التناص بين قوله: (يسترد عصاه, فيهش قفا الكلمات..) وقوله تعالى :{ قال هي عصاي أتوكأ عليها وأَهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أُخرى}[3] , إذ تشرَّبت مدلولات الآية الكريمة في نصه

(1) رماد كائن في الليل (شعر) , مزاحم علاوي الشاهري , منشورات اتحاد الكتاب العرب , مكتبة الأسد , دمشق – سوريا , ط1 , 2020 : 23 .

(2) ينظر : مفهوم ثقافة الصمت , المرسال , الشبكة الإلكترونية : 1 www.almrsal.com .

(3) سورة طه , الآية : 18 .

ولاسيَّما العصا التي جاءت رمزًا لامتلاك السلطة والقدرة على التغيير وقلب الأَدوار من السلب إلى الإيجاب, وإشارة إلى انبثاق الحركية وتأجيجها في النص وصولًا إلى مبتغى الذات الشاعرة المتمثلة بالعودة إلى الواقع وإنهاء رحلة الاغتراب بوساطة تحرير الملكة الإبداعية وإطلاق العنان للقصيد، لتفعيل المقاومة وتحقيق الوجود .

أَمَّا المظهر الثاني لظاهرة الحزن فيتمثل بالخيبة في الحب والحرمان من الحبيب , وهذا ما خرج إليه نص (ما تبقى), الذي عبر فيه الشاعر عن خيبته في الحب, مع كل ما بذله من جهد من أَجل إقامة أَواصر التواصل مع المحبوبة, لينتهي به الأَمر في حالة من البؤس المشبوب بالحزن الناجم عن عدم تحقق الاتصال . [1] " كيْفَ لِي

أنْ اقُولَ أُحبُكَ ,

والوَقْتُ ما بيننا

كالمَدىَ

أن أقول: أحبك

والصمت ما بيننا

كالمدى

سأقول : أُحبُكَ ..

.. حِلماً جَمِيلاً

تَمَنيتُ أن يفيقَ معي

في الصباحْ ,

وامْنَحُهُ ما يشاءْ ,

واتبعُهُ مِثْلَ ظِلٍ أليفْ .

سأقوُل : أُحبُكَ .. "

فالملاحظ على النص أَنَّ الأَواصر الداعمة لإقامة علاقة حب سليمة بين الطرفين مفقودة, بدلالة السؤال الموجه من الحبيب لمحبوبته الذي تكرر (مرتين) في هذا المقطع (كيف لي أن أقول أحبك) لتنتفي معه إمكانية إقامة هذه العلاقة, ولاسيَّما أَنَّ أَواصر

(1) رماد كائن في الليل : 17 – 18 .

التواصل بينهما منقطعة (الوقت ما بيننا كالمدى , الصمت ما بيننا كالمدى) لتغرز بدورها أواصر الانفصال.

إلَّا أَنَّ المحب يقاوم الانفصال بإصراره على إقامة الاتصال بينهما حتَّى وإن كان في عالم الأَحلام, مستعينًا بالفعل (سأقول) الدال على استمرارية الفعل في الحال وامتداده في الاستقبال , ليأتي تكرار الصيغة (أَربع مرات في النص) معززًا لموقفه إزاء المحبوبة، وإن لم تبادله الشعور ذاته وهذا ما عبر عنه قوله : [1]

" سأقوُلَ أُحبُكَ
رغم اضطِرابَ الفصُولْ
وبُعْدَ الحدودْ
وسِنارةَ الصَائدينْ
فارحَليْ بِسلامْ
فَقدْ قلتُها يائِساً " .

إلَّا أَنَّ قفل النص برحيل المحبوبة كان داعيا لهيمنة الحزن على أجوائه ؛ إذ مُنيَ المحبوب بخيبة الأمل الناجمة عن اليأس من إقامة أواصر الاتصال بينه وبين المحبوبة .

وتتكرر هذه الخيبة في الحب في نصوص شعرية أخرى , فهذا نص (عودة لمدن أخرى) تنتفي فيه أواصر الاتصال بالمحبوبة , ليبقى الحلم السبيل الوحيد أمام الشاعر لتحقيق الغاية المبتغاة في الحب , والمتمثلة بالتواصل مع المحبوبة ومبادلتها المشاعر السامية , إلَّا أَنَّ هذا الحلم عادة ما يثير في نفسه أشجاناً تدعو للحزن , وهذا ما جسده قوله : [2]

" أما آن للحِلم أن يترجل
أتعبته باصطِيادْ الدقائقِ ,
في غُنْوةٌ كنتُ غنيتُها ,
او حَديثٍ تَململَ في ساعةٍ طائشةٍ

(1) المصدر نفسه: 18 .
(2) الحلم مملكتي : 90 – 91 .

أما آنَ للذِكرياتِ الجَميلاتِ ,
أن تتقيْ عَودةَ ثانيةْ
لِكُلِ نَهَارْ أقضَ خُطَاكْ ,
رجوع إلى ظلها
وبكِلِ مَساءٍ ,
يفيضُ به الخمرُ والجمرُ ,
رجعُ إلى ظِلِهاْ ...
وأنت تعانِدُ نسيانهاَ
وتَمِيطُ على الوجَعِ المرِ أسمالَها ...
.....
.....
صَحا الصُحبَةُ والحاملونَ ,
ومَا زِلتْ تنأى ,
بَإسفارِها .. "

ولم تقتصر الأَزمات الباعثة للحزن في تجربة الشاعر الإبداعية على الخيبة في الحب والحرمان من الحبيبة , بل تعدتها إلى حلول النكبات والخسائر الإنسانية في محيط الأسرة والأصحاب وهذا ما نلمحه في نص (تخطيطات لمرثية) الذي يسرد فيه الشاعر مأساة فراق أخاه (سعد) الذي سقط شهيدًا في ساحة الوغى, مبينا أثر انعكاسها السلبي على نفسه ونفس أسرته : [1]

" تحامل بِصَبْرِك ,
إن الليالي العِذابْ ,
منازِلهاَ ,
وجَليِس بها ,
فاقِدَ لحظة الصحوْ ,

(1) المصدر نفسه: 17 .

يذْدُب حُزناً عَمِيقاً
لذاكَ الذي بايعتهُ الفَجِيعَة ,
لوْعَتها الهمجيةِ .. "

فمع إطلاق الشاعر لدعوته بالصبر على المصاب الجلل في استهلال النصّ, إلَّا أَنَّ الحزن بدأ مهيمنًا على فضائه ومتغلغلًا في أجزائه, بدلالة إطلاق سمة العذاب على الليالي, وتشكّل منازلها بالدم, فضلًا عن وسم جليسها بالضياع واستغراقه بالحزن, إمعاناً بعظم أمر المصاب المتمثل بفقد الأخ , لينغلق النص على استشراء السلب فيه , إذ تجف مآقي الشاعر حزناً على فقده , ويستعر قلب الأم لهيباً على فراقه : [1]

" ليالٍ طِوالٌ
طوالٌ
تشهَينَ كلَ دمي
قطرات من الدمعِ ,
حتى الجفاف ..
ليالٍ عذابٌ
تخاصرنَ في قلب أُمي
لهيباً
وصدراً ينوحُ بثقلِ البلاءِ
ووجهاً
تقافر منه الدمُ ..
ليالٍ بأسفارها
عُذُق الموتِ
عالقةٌ
وتعودُ تُرَددُ ,
نفس السؤالِ

(1) المصدر نفسه: 17 – 18 .

" أكلُ الذين نحبهم يرحلون " !

إذنْ

راحلٌ – سعد – .. ".

وهكذا تستمر الأحزان الناجمة عن فقد الأحبة بإلقاء ظلالها على نفس الشاعر لتفيض قصائده أنيناً مكتوية بنار الفقد , فنراه في نص (ما يتركه الراحلون) ينعى أباه بقلب منسكر منهك بألم الفراق ولوعته : [1]

" يغادرني كل حينٍ حبيبُ
فأصحو على وترٍ ,
ضاع مني
على كلمة راحلةْ
أفتش في الأرض ,
أنشر قلبي على الطرقات ,
وعيني في كل صوبٍ ,
أنادي :
تعالَ
فأين ارتحلت
وأي المنازل يحلو !
فكل المنازل أمست قفاراً
وكل العيون اكتوت بالهجيرِ ,
تعال
هواي انكسارٌ
وليلي احتضارٌ
وعيناي ملت دموعُ الفراقِ
أجبني بعيداً تكون ,

(1) رماد كائن في الليل : 40 – 41 .

قريباً تكون

فروحي ترفُ هوىً للقاك ".

فابتدأ النص بالصيغة الفعلية المضارعة المقترنة بظرف الزمان في قوله (يغادرني في كل حين) دلَّ على استغراق الحزن في نفس الذات الشاعرة , بفعل تكرار الحدث واستمراره المتمثل بـ (موت الأحبة من الأهل والأصحاب) بدلالة الأفعال المضارعة (أصحو , أفتش , أنشر) المشيرة إلى حالة القهر والضياع التي أورثته حالة من الانكسار الذاتي الداعي إلى الفناء والزوال , سعيا للقاء الأحبة والاجتماع بهم .

وكما كان للشاعر نصوصاً معبرة عن ألم فقدان الأهل, كان له نصوصاً أخرى معبرة عن ألم فراق الأصحاب, وما ينجم عن ذلك الألم من حزن تفيض به قريحة الشاعر فيسطره قصائد ناطقة بمرارة الفقد, ومنها نص (الفتى أمجاد) الذي رثا فيه صاحبه الشهيد أمجاد داؤود, معبراً عن حزنه العميق لفراقه , إذ كان رفيق دربه وأمين سره : [1]

" أيُ وجهٍ

ككل صباح

الاقيه

باسمة وجنتاهْ ؟!

أيَ قلب

يكاشُفُني

ثُقلْ غربتنا

ويقاسِمُني

هذياني ,

أذا أمطرتْ سحبُ القلبِ

لوعتها ؟ .. "

ويستمر الموت بإلقاء ظلاله على نصوص الشاعر متعدياً صفة قبضه لحيوات الأحبة , لصفة كونه شبحاً يفرُ الشاعر منه رهباً خوف السقوط في براثنه, مثيرًا في نفسه

(1) الحلم مملكتي : 32 .

الحزن والانفعال أمام الوجود والفناء , وهذا ما خرج إليه نص (الشيخوخة) الذي بث فيه مخاوفه إزاء تقادم الزمن به : [1]

" تأمل وجهه
قمصانه
كتباً على رفٍ قديم
من خشبَ
تصاويراً
كلجدته
تقول :
وكان يا منا كانْ
وأشياء بلا دفـءٍ
ولا ألوان ..
تلمس بعضها سقطتْ
تفحص وجهه مرات
فأدرك حالهُ ثم انتحبْ .. "

فالعنوان جاء معلنًا عن قلق الإنسان من جريان الزمن وتقادمه, ذلك أَنَّ (الشيخوخة) معرفة بأنَّها مرحلة متقدمة من حياة الكائن الحي وهي سابقة لمرحلة الموت, وهنا تكمن أهمية العنوان كونه دليل القارئ إلى النص بوصفه الموجه القرائي الأول لعملية القراءة , كاشفا عن مضامينه ومدلولاته , إذ تتغلغل جزئياته في ثنيات النص وأجزائه[2] بدءاً بتأمل الوجه الذي يأتي عادة بوصفه مرآة للزمن وقهره بما يتركه من خطوط وآثار دالة على تقادمه , ومرورا بتشبيه الأشياء بتقادمها بقول الجدة (كان يا ما كان) الذي جاء هنا كناية معبرة أيضاً عن تقادم الزمن وقهره للموجودات, بدلالة فقدانها للدفـء والألوان التي

(1) رماد كائن في الليل : 21 – 22 .

(2) ينظر : في نظرية العنوان (مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية) , د.خالد حسن حسين , دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر , دمشق , (د . ط) , 2007 : 65.

تأتي عادة رمزاً للفاعلية والاتقاد والأمل والحياة , لينتهي الأمر بهيمنة الحزن المتمثل بـ(الانتحاب) ليقفل النص بقلق الذات الشاعرة إزاء الوجود والفناء، وهذه أَبرز مظاهر الحزن النابعة عن بواعث ذاتية في شعر مزاحم علاوي .

ب: بواعث الحزن الموضوعية:

إنَّ أَحزان الشاعر العراقي المعاصر أخذت تندمج مع عاطفية حزنه وذاتيته بأحزان الوطن ومواطنيه التي كانت الحروب وما رافقها من حصار سببًا رئيسًا لبعثها؛ حتى غدا جرحه الخاص مندمجا بجراحهم، ليبث ذاك الحزن في قصائده بصور مؤلمة، فيها من العذاب ما يبوح ببشاعة تلك المعاناة الإنسانية [1] ومن ذلك قصيدة (عتاب)، الَّتي قدم فيها الشاعر صورًا تنبض بما ينجم عن الحرب والحصار من خراب وتدمير وقهر ، إذ إنها تطبق على الواقع المعيش، وتنشر فيه الوحشة والوجع والفقد والحزن، وتترك إنسانه معذبًا بإفرازاتها : [2]

" أجمل الأشياء وهمٌ
أعذبُ الاسفار تيهٌ
وحصارٌ يتجددْ
فلماذا القلق النافر في عينيك
يصهلْ !
ولماذا لا تكون ...
ورقاً أبيض يقبلْ
خط حرف يتبخرْ
كلُ من أبصرته
يسعى إلى قاع
ويذوي كحصاةً ..

(1) ينظر: الحصار فضاء شعريا (قراءة في جدلية شعر المرأة العراقية المعاصرة)، أ. د بشرى البستاني، مجلة الأقلام، ع1، السنة 36، كانون الثاني– شباط، 2001 : 19.

(2) رماد كائن في الليل : 19 – 20 .

وإذا اختار الذي يهوى
تعالى حوله الموت ,
فماتْ " .

في هذا النص يتوجه الشاعر بالخطاب لمخاطب مجهول لم يعلن عن هويته إمعاناً في لومه عما يكابده من مواجد مأخوذة عليه, ولاسيَّما أَنَّ له مكانة عظيمة في نفسه كونه (الوطن) الذي ينتمي إليه , وهذا ما عززته دلالات العنوان؛ لأَنَّ (العتاب) يأتي عادة بمعنى اللوم المخصوص بالأخلاء المقربين من الذات اللائمة , "فعاتبه مُعاتبةٌ وعتاباً كل ذلك بمعنى لامه ... قال الأزهري : التعتب والمعاتبةُ والعتابُ كلُ ذلك مخاطبة الإدلال وكلامُ المُدلين أخلاءهم , طالبين حسن مراجعتهم ومذاكرة بعضهم بعضاً ما كرهوه مما كسبهم الموجدة" [1].

ولعل أبرز ما أخذ على المخُاطب / الوطن , هو ما أفرزته الحرب والحصار المتجدد من أدران محقت معها حقائق الأشياء وجردت من جواهرها فغدت أجمل الأشياء (وهم) وأعذب الأسفار (تيه) كناية عن استشراء السلب في المكان وانعكاس آثاره على الإنسان الذي بات محاصراً بالموت والفناءِ بدلالة الأفعال المضارعة الدالة على استمرارية وقوع الحدث في الحال والاستقبال في قول الشاعر : (يسعى , يذوي , يهوى) ولاسيَّما أَنَّها جاءت مقترنة بالسلب؛ فالسعي عادة يأتي في طلب تحقيق أمر محمود لا مكروه (كالسقوط في القاع ..) فضلاً عن اقتران اختيار المحبوب بالحياة لا (الموت والفناء) لذلك كله يتوجه الشاعر بالسؤال للمخاطب عن سبب إصراره على التزام مواقف السلب دون الإيجاب مع إدراكه لسوء العاقبة, بدلالة (صهيل القلق النافر من عينيه, وانتفاء النقاء من واقعه), ليأتي تكرار السؤال بالأَداة (لماذا / مرتان) تأكيداً على ذلك اللوم الناجم عن إحساس الذات الشاعرة بالحزن والانكسار أمام سلبية ذلك الالتزام , الذي استحالت معه الأشياء مفرغة من الإيجاب : [2]

" دورةُ الأشياء دارتْ

(1) لسان العرب , مادة(عَتب) : 673/1 .
(2) رماد كائن في الليل : 20 .

فاستدارتْ

كل أحلامك ضداً

فحصدتَ القمح قشاً

والهوى دنَ عذابْ

فاستوى الحزنُ بعينيكَ

طريقاً من سرابْ .. "

وهكذا تتجرد الأشياء من جواهرها أمام سلب الإنسان حقه بالحياة وتحقيق الوجود لتتحول الحقائق إلى وهم وسراب يجري أمامه دون الوصول لغايته المبتغاة , لينتهي محاصراً بركام الواقع الباعث على الزوال , وهذا ما خرج إليه الشاعر في مقطع من نص (حبيبتي والشعر) الذي عبر فيه عن استشراء الموت والفناء في وطنه بفعل الحرب , لتؤول مصائر الأَشياء فيه إلى الزوال : [1]

" تموتُ زهرةٌ ,

وأخرى قبلَ نَبْتِ الموسم المعتادِ ,

ماتتْ

ثم أُخرى ,

نَبِتتْ شوهاءَ ,

تُخفي سَوْءة الأرض الخرابْ .. ".

فموت الزهرة جاء رمزاً دالًا على موت البراءة واغتيال الوجود بفعل الحرب؛ لما تحمله الزهرة من دلالات مفعمة بالإيجاب كـ : (الحياة والنضارة والأمل والإشراق)، واستخدام الفعل (تموتُ) بالصيغة المضارعة مع تكرارهِ وتكرار قولهِ (وأُخرى, ثُمَّ أُخرى) جاء مؤكداً على استمرارية فعل الإبادة من قبل قوى مجهولة لم يصرح النص بذكرها, مكتفياً بالإشارة لفعلها المتمثل بالقضاء على معالم الحياة والجمال, تأكيدًا على بشاعتها التي أشار إليها قوله (نَبتتُ شوهاء, تخفي سَوْءَة الأرضِ الخرابْ ..) فالحرب إذاً تسم الوجود بالسلب فتعمل على تجريده من الفاعلية والإيجاب تاركة الحياة شوهاء يسودها القبح

(1) الحلم مملكتي : 48 – 49 .

والخراب , لذا نجد الشاعر في مقطع من نص (أيتها الروح) المعنون بـ (الدعاء) يستجير من وقع خبر الحرب على بلادهِ قائلاً : [1]

" كل صباح
حين يقرأ المذيعُ
نشرة الأخبار
يقول : يا ستارْ
احفظ لنا بلادنا
من شر ما يجري ,
ومن دسيسة لما يزلْ
يحبكُها الأحبارْ .. "

فابتداء النص بظرف الزمان (كلَ صباح) دل على استمرار الحدث وتكرار وقوعه في المكان / الوطن ، الذي ما يزال واقعاً فريسة مخططات العدو / الأحبار أي علماء اليهود بما يكنَوه من عداء لبلاد الشاعر / العراق , وللأمة العربية قاطبة ليندغم بذلك الهم الوطني بـ ألهم القومي في نفس الشاعر مُشيعاً الخوف والترقب في فضاء النص .

ومع كل ما مني به الإنسان العراق من انكسار واستلاب لحقه في الوجود وتقرير المصير, فضلا عن الحياة في بيئةً مفعمة بالسلب , نجد الشاعر في نص (شهوات الحلم) يسعى إلى إدراك حلمه الذي وجد فيه الملاذ الآمن من قسوة الواقع وجوره : [2]

" مَنْ أيقظني في تلك الساعةِ من نومي !
مَنْ هَرَب من عينيَ الأحلامْ
في تلك الليلة ,
قُدْتُ ينابيع الماءِ ,
انقاد الماء إليَ
وجاءتْ من خلفي الأشجارْ .

(1) رماد كائن في الليل : 93 – 94 .
(2) الحلم مملكتي : 101 – 102 .

كنتُ المالكَ والمملوكْ
لكني لم أطلبْ غير رغيفٍ للجوعى .
...
الحُلم جوادٌ للأسفارِ ,
موائدٌ للفقراءِ ,
دنانٌ لا تنضبْ .
وحلولٌ للعاجز في جلدي .
كيف يجيءُ الحلمُ ولا يرحلْ ؟
كيف يجيءُ النومُ لمثلي ؟
أُبصرُ في الحلمِ ,
سماءً لا تهوى القضبانْ
وممالك لا تهوى التيجانْ . "

إن التساؤلات المنبثة في النص في الأسطر (الأول والثاني والثالثة عشر والرابعة عشر) إنما جاءت مؤكدة لرغبة الشاعر بالتحقق وإثبات الوجود بوساطة العودة لعالم الأحلام الذي أدرك فيه ذاته المستلبة بفعل قساوة الواقع المعيش, ليأتي الحلم هنا بمثابة آلية للتحقق ومقاومة مشاعر الحزن والعجز الداعية إلى الفناء, وهذا ما أَكَّدته الأَفعال : (قدتُ, انقاد, وجاءت, وكنت) بما ارتبطت به من دلالات فاعلة دالة على التحقق وامتلاك القرار بدلالة قوله (كنت الممالك والمملوك ...)، أَمَّا طلبه (رغيفاً للجوعى) فجاء بوصفه رمزاً دالاً على قساوة الواقع المعيش لوطنه / العراق , فضلاً عن نقده لسياسات قادتهِ الخاطئة التي تركت شعباً يحلم برغيف خبز , إثر استنزاف ثرواته بفعل الحرب والدمار؛ ليغدو الحلم بهذا الأداة الفاعلة للتجرد من ثقل الواقع وسلبهِ بدلالة الفعل (أبصر) الدال على اليقين من التحقق المقترن بالتحرر من أي نوع من أنواع التسلط المادي وذلك في قوله (سماءً لا تهوى القضبانْ , ممالك لا تهوى التيجان) سعياً لتحقيق العدالة في واقعه .

وكما كان للواقع أثره في إثارة بواعث الحزن لدى الشاعر فإن البعد عن الوطن والحنين إليه عد باعثاً موضوعياً من بواعث الحزن لديه , إذ أثار البعد في نفسه أشجاناً سالت لها

مآقيه بالبكاء وهذا ما أكده المقطع الآتي من نص (هواجس من بلاد البحر) في قوله : [1]

" كنتُ بين الحين والحانات أبكي ,
حين أحكي عن بلادي
ربما تنكرني الآن بلادي
ربَما تصدقني ..
ما تَشا منَي أكونْ
فأنا منها إليها
وأنا مشتعلٌ في حُبِ عينيها
جنونْ .. "

فبُعد الشاعر عن بلاده وحنينه إليها أوقد في نفسه جذوة الحب المشبوب بالحزن رغبة منه بالعودة والتوحد فيها بدلالة قوله (ما تشا مني أكون , فأنا منها إلها ..).

وأَخيرًا فإنَّ ظاهرة الحزن تتسع في نفس الشاعر ممتدة خارج نطاق حزنه الوطني لتشمل الأمة العربية المستلبة التي تسلطت الأنظمة الرجعية على أقدارها سالبة إياها أدوار الفاعلية، متجرعة كأس مرارتها وهي تشهد اقتطاع أجزائها الواحد تلو الآخر من العدو الصهيوني المغتصب دون أن يكون لها القدرة على مقاومة مخططاته العدوانية, وهذا ما أكده نص (الاحتجاج) الذي جسد فيه الشاعر موقفه الرافض لأدوار الاستكانة والتخاذل التي التزمها حكام الأنظمة الرجعية في الأمة العربية، مشيداً بموقف البطولة للمقاتلة الفلسطينية التي آثرت الموت على الاستكانة والرضوخ لسلطة المحتل , لتغدو تضحيتها أمرًا باعثا على انطلاق الثورة وتأجيجها : [2]

" مسَدتِ وجهَ الأرض ,
بالبارودِ ,
والحناءِ ,

(1) المصدر نفسه : 85 .
(2) رماد كائن في الليل : 25 .

واخترتِ الطريق الأقصر ,
الدربَ المتوضأ بالدماءْ ,
تدرين أن الخيل منهكةٌ ,
بلا غزو
وأن الأرض ما زالتْ تبل الريقَ ,
ممزوجاً ,
بنار الإخوة الأداء ,
في الزمن القتيلْ . "

فقوله (تدرين أن الخيل منهكةٌ , بلا غزو ...) فيه إشارة إلى أمجاد الأمة الغابرة في زمن الفتوحات الإسلامية وذلك تعريضاً بأدوار التخاذل والتبعية التي اعتمدها حكامها اليوم والتي كبلتها وأحالتها إلى أمة متجزئة متصارعة تتقاذفها الأقدار, وهذا ما خرج إليه قوله (ممزوجاً , بنار الإخوة الأعداء ..) كناية عن استشراء الغدر والخيانة في نفوسهم . وهكذا نلاحظ تعدُّد ألوان الحزن وظواهره في نصوص مزاحم علاوي الشاهري.

الخاتمة:

وفي ختام مسيرتنا البحثية نخلص لتقديم النتائج، المتمثلة بالآتي:

1- يندغم المفهوم اللغوي للحزن بالمفهوم الاصطلاحي منطلقا من معنى خشونة الشيء وغلظته وشدة وقوعه على النفس. وأنه نقيض الفرح، وهو خلاف السرور.

2- يقع الحزن في النفس البشرية إمَّا بفعل بواعث ذاتية متمثلة بوقوع مكروه، أو فراق محبوب، أو لانطواء مزاجها على القلق والاضطراب، وإما بفعل بواعث موضوعية تتمثل بالمحيط السلبي للنظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية وما تفرزه هذه النظم من ظواهر محزنة، وقد بدت آثار هذه البواعث واضحة بصورة جلية في شعر مزاحم علاوي الشاهري؛ إذ طبع فيها نتاجه فبات الحزن ظاهرة بارزة في شعره .

3- غدا الحزن باعثًا من بواعث صياغة التجربة الشعرية وتشكلها في نتاج الشاعر موضوع البحث، ولاسيَّما وأَنَّه كان يحيا في ظل أجواء يهيمن عليها السلب بفعل الحرب والحصار وما نجم عنهما من آثار انعكست سلبا على مجتمعه، ليتواشج لديه الهم الذاتي بالهم الموضوعي مفجرًا طاقاته الشعرية المعبرة عن مرارة واقعه.

4- برز الحزن في النتاج الشعري للشاعر – موضوع البحث – بوصفه حالة نفسية اعترت نفسه فأثرت فيها لتنطبع بها تصوراته وسلوكه في الحياة ، لتمثل نظرته إلى الحياة وما يحدث فيها من الأحداث القاتمة، والرزايا أو المحن وغيرها من ألوان البؤس والشقاء. فجاءت أشعاره معبرة بصدق عن تلك الأزمات. مجسدة انفعالاته وإحساسه المفرط تجاه تناقضاتها، ليتولد لديه شعورا بالألم والحزن، الذي طبع به شعره.

5- تجسدت ألوان الحزن الذاتية في نتاج الشاعر – موضوع البحث- بمظاهر عدة، أبرزها اغتراب الشاعر عن محيطه وتقوقعه على ذاته بفعل سلبية واقعه المحيط، فضلًا عن الخيبة في الحب والحرمان من المحبوب، وأَيضَا ما ألمَّ به من فقد للأهل والأَصحاب بفعل الموت الذي بات شبحه باعثًا للجزع والحزن في نفسه.

6- تعددت ألوان الحزن الموضوعية بعد أن أخذت بالاندماج مع عاطفية حزن الشاعر وذاتيته بأحزان الوطن ومواطنيه التي كانت الحروب وما رافقها من حصار سببًا رئيسًا لبعثها؛ حتى غدا جرحه الخاص مندغما بجراحهم، ليبث ذاك الحزن في قصائده بصور مؤلمة، فيها من العذاب ما يبوح ببشاعة تلك المعاناة الإنسانية؛ إذ تتجرد الأشياء من جواهرها أمام سلب الإنسان حقه بالحياة وتحقيق الوجود لتتحول الحقائق إلى وهم وسراب يجري أمامه دون الوصول لغايته المبتغاة , فينتهي به الأمر محاصراً بركام الواقع الباعث على الزوال.

References

_ Abu Al-Fadl Jamal Al-Din Muhammad Al-Afriqi Al-Masri, Dar Al-Kutub Al-Alami, Beirut - Lebanon, 2009, 136.

_ Bushra Al-Bustani, The Siege is a Poetic Space: A Reading in the Dialectic of Contemporary Iraqi Women's Poetry: Al-Aqlam Magazine, 2001, 19.

_ Dar Al-Awda, Poetry between Vision and Formation, Beirut - Lebanon, 1981, 26.

_ Jamil Saliba, The Lebanese Book House, Beirut , Lebanon, 1971, 466.

_ Khaled Hassan Hussein, In The Theory of the Title: An Interpretive Adventure in the Textual Threshold Affairs, Dar Al-Takwin for Authoring, Translation and Publishing, Damascus, 65, 2007.

_ Muzahim Allawi Al-Shahri, Ashes of a Creature at Night, Publications of the Arab Writers Union, Al-Assad Library, Damascus - Syria, 2020 , 23.

_ Raja Samreen, Contemporary Arab Women's Poetry, Dar Al-Hadatha for Printing, Publishing and Distribution, Beirut - Lebanon, 1990, 333.

_ The Committee for the Revival of Arab Heritage in Dar Al-Afaq Al-Jadida, Differences in Language, 1983, 216.

_ The Dream is My Kingdom: A Poetry Collection, Muzahim Allawi, House of General Cultural Affairs, Baghdad , Iraq, 1986, 95.

The Phenomenon of Sadness in Muzahim Ali Al-Shahri's Poetry

Faten Ghanem Fathy Al-Nuaimi*

Abstract

The importance of the research entitled " The phenomenon of sadness in Muzahim Ali Al-Shahri's poetry " lies in the fact that (sadness) comes as a prominent phenomenon in the poetry of Muzahim Allawi, in addition to being a motivation for the formulation of the poetic experience and its formation in the product of the Iraqi creator in general, especially since he was living under the shadow of an atmosphere dominated by robbery due to the war and the siege and the effects that resulted from them which was negatively reflected on society in general; therefore, the product of the creator was imprinted with the character of sadness, as his self-concern interwoven with objective concern, exploding his poetic energies expressing the bitterness of his reality. So we chose (sadness) as a topic for our research. The research has a textual approach; The method of working is based on an approach to poetic texts, and an attempt to uncover their formative images and elements, while taking care of the contexts surrounding the text 'such as the social, national and national context that its connotations were referring to the research plan is based on two parts, preceded by an entry that is separated from the linguistic and idiomatic concept of (sadness), as well as its effect on lighting up the poetic experiment and launching it in the product of the Iraqi creative person.

The first section is devoted to the study of (the subjective motives of grief) resulting from the creator's awareness and tenderness of his sense of the setbacks of his reality, the life crises, calamities and human losses that befell him and his family and other matters.

***Asst. Prof. Dr/ Department of Arabic Language/ College of Arts/ University of Mosul.**

Key words: sadness, modern poetry, phenomenon, Al-Shahri.